١١ ـ رحلة إلى الهند

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عضو كلية الآداب

ضريح همايون

إلى الغرب والشمال من دهلي تقوم أبنية كثيرة هي بقايا الأحداث والغير من مقابر الملوك التيموريين . وأعظمها تمثال المجد الماثل على ضريح نصر الدين همايون .

همايون الملك الثاني من هذه الأسرة المجيدة العظيمة التي سيطرت على الهند قروناً . وهو سيرة عجيبة من الهمة التي تحقر الصعاب ، والعزم الذي ينكر الأهوال ، والأمل الذي يكفر بالمستحيل

أبوه ظهير الدين بابر ورث إمارة في سمرقند وفرغانة وهو صبي في الثانية عشرة . فلما غلب عليهما بعد خطوب طويلة ، وجّه همته إلى أفغانستان ففتحها واستولى على بَدَخشان ثم كابل وقندَهار ومدن أخرى . واستعاض عن الأمارة الصغيرة التي فقدها إمارة أعظم . وأحال الهزيمة انتصاراً ، وزوال الملك وسيلة إلى ملك أكبر ، واليأس من سمرقند يقيناً بفتح كابل ثم وجّه أمله وهمته وعزمه وعقله وعبقريته في السياسة والحرب ، إلى الهند فلم يثبت لجيشه جيش ، ولم يقم لدهائه دهاء ، ولم يصدّ تدبيره تدبير . فامتدّ به الفتح شمالا وجنوباً .

ومات بابر بعد خمس سنوات من انتصاره الهائل في معركة پاني پات التي فتحت له أبواب الهند ، ومارسخت قواعد الملك ، ولا اطمأنت أساطين الدولة ؛ بل ما قرّ عجاج الحروب ، ولا فارق الأسماع صدى السلاح . فورث ملكه ابنه همايون وسنّه تسع عشرة سنة . فاستأنف فتوح أبيه ؛ ولكن شيرشاه أمير بهار استطاع أن يسدّ السيل ثم يردّه صوب الغرب شيئاً فشيئاً حتى اضطرّ همايونَ إلى السند . ثم أخرجه إلى إيران مغلوباً قد فقد ملك أبيه كله فماذ بملوك الدولة الصفوية وبقي همايون خمس عشرة سنة لاجئاً لا ملك له ولا وطن .

ولكن العزيمة التي سخّر بها بابر أفغانستان والهند حينما طرد من سمرقند ، سيّرت همايون من إيران إلى الهند ليفتحها ويسترد مُلكه كأنه لم يغلب عليه ، ولم يطرد منه ، ولم يلبث خمسة عشر عاماً بعيداً عنه في حماية ملوك إيران . فتح دهلي سنة ٩٦٢ بعد ثلاثين سنة من فتح بابر إياها . وبعد سنة مات همايون وسنه خمس وأربعون سنة .

في خزانه كتب عظيمة وصعد عليها يوماً فزلّت قدمه فسقط فمات . ومن العجيب أن تاريخ وفاته في هذه الجملة : « الملك همايون سقط من السطح » (همايون بادشاه أزبام أفتاد) .

حزنت زوجه حميده بانو بيكُم على زوجها بل وَلهت فخرجت إلى الحج ورجعت مستصحبة مهرة البنّائين والصناع لتبني لهمايون ضريحاً يكافيء عظمته ، ويمثّل مكانته في قلبها ، ويخلّد ذكراه على الأرض . وبنت هذا الأثر الرائع . وهو أول نموذج لمقابر الملوك المغول التي افتنّوا فيها من بعدُ حتى بلغ الفن ذروته في تاج محل .

وفي جانب من حديقة القبرة دار خربة تسمى عرب سراى (دار العرب) يقال إنها كانت دار الصناع الذين قدموا مع السيدة من البلاد العربية .

كان هذا أول قبر على هذا الأسلوب في الهند . وأما بابر أبو همايون فلم يدفن في الهند بل قبره في كابل .

وقد حدثني الأديب الكبير سرور كويا أستاذ الأدب الفارسي في جامعة كابل — وقد سعدت بلقائه في إيران قبل ثلاث عشرة سنة وفي الهند هذا العام — قال كنت في صحبة الشاعر العظيم الفيلسوف محمد إقبال حينما زار قبر بابر في كابل . فالتفت إليّ قائلا : ياسَرْوَر أكتب وأملى عليّ هذين البيتين بالفارسية :

خوشا نصيب كه خاك تو آرميد اينجا
كه اين زمين ز طلسم فرنك آزاد ست
هزار مرتبه كابل خوش است أزدلى
كه اين عجوزه عروس هزار داماد ست

وترجمتها :

طوبى لك إذ استراح ترابك هنا
فهذه الأرض منزهة عن سحر الفرنج

إن كابل خير من دهلى ألف مرة
فتلك العجوز عروس لألف زوج

والشطر الأخير شطر معروف لحافظ الشيرازى فى وصف الدنيـــا .

ورحم الله إقبالا ! كأنه رأى بظهر الغيب غدر هذه العجوز بالمسلمين . فهى اليوم تطردهم وتفتك بهم ولا ترعى عهدهم وقد سيطر عليها سلطان المسلمين ثمانية قرون عدلوا فيها وأحسنوا ورحموا رعاياهم وتركوهم أحراراً فيما يدينون . فبقيت الكثرة لغير المسلمين فى دار الملك الإسلامى حتى زالت دولتهم

***

تدخل حديقة واسعة جداً فى وسطها بناء تفضى إليه طرق أربعة مبلطة فيها قنوات وأحواض . وكل طريق يمتد بين باب للحديقة وهذا البناء . سرنا من المدخل فى إحدى هذه الطرق إلى دكة رقينا إليها ست درجات . وفوقها دكة أخرى عظيمة عالية مربعة فى كل ضلع منها خمسة عشر عقداً أوسطها يفضى إلى خمس وعشرين درجة تصعد إلى القبة الحانية على الضريح — كما يرى فى الصورة —

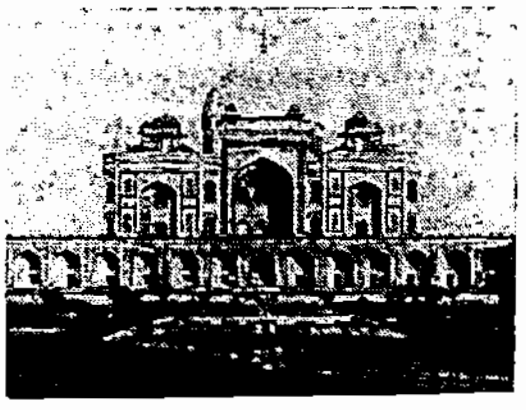

وعلى الدكة العالية بناء مربع الجوانب وسطه قبة شامخة من الرخام الأبيض تحيط بها حجرات متواصلة فى هندسة محكمة جميلة . وفى هذه الحجرات قبور قيل لى أنها ستة وخمسون لأمراء الدولة وأعيانها .

ودخلت فإذا قطعة من المرمر جامعة فى الوسط تحتها رفات همايون وفوقها قبة تقوم على ثمانية عقود . ولا تبدو القبة عالية من الداخل لأنها قبة مزدوجة أى قبتان إحداهما فوق الأخرى . وهى أول قبة من هذا النوع فى الهند . وقد رأيت فى مسجد الشاه بأصفهان قبة عظيمة فوق القبلة مزدوجة يتردد صدى الصوت تحتها عشر مرات أو أكثر ، ولكن قبة همايون لا تردد الصدى كأنما أخرسها جلال الموت ، أو هيبة الملك .

خلعت نعلى وخطوت خطوات إلى القبر فوقفت واجماً خاشعاً حيناً ورافعاً بصرى إلى القبة حيناً . قلت : قبر عظيم ولكن ذكرى همايون أعظم . إن عزمك الماضى أيها الملك الهمام ، وهمتك العالية طوبتا فى هذا اللحد ، لا بل هما ملء التاريخ ...

قرأت الفاتحة خاشعاً وخرجت .

ثم صعدت إلى السطح المحيط بالقبة فإذا هذا التناسق الكامل الذى يميز أبنية السلاطين التيموريين كلها . فى كل جانب قباب يصعد إليها درج . وفى الزوايا قباب أصغر منها فى تناظر تام وتناسب لا يتسع المجال هنا لتفصيله .

نزلت وخرجت مع الرفاق والتاريخ يمرُّ أمامى سريعاً فأرى همايون فاتحاً . وهمايون دفيناً ، وأرى الأحداث تتوالى فتشمل الدولةُ أرجاء الهند كلها ويجمع البلادَ سلطان واحد لأول مرة فى تاريخها ثم يجزر البحر فتضعف الدولة ويتسلط الإنكليز .

وتتوالى الخطوب حتى أرى بهادُر شاه آخر السلاطين من ذرية همايون يحتمى بحرم جده ، بهذه القبرة وهو يحارب الإنكليز قبل تسعين عاماً فيؤسر وينفى . ويؤخذ من هذا الحرم بنوه الثلاثة مُقتَل وخضر وأبو بكر فيقتلون صبراً على مشهد من الناس .

قلت : ما دفن هنا همايون وحده ولكن دفن كل تاريخ الدولة التيمورية . فيا لك أول ضريح للدولة العظيمة فى الهند وآخر ضريح .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

وضع فى المقال الذى فى العدد (٧٤١) صورة ضريح اعتماد الدولة خطأ موضع صورة الجامع الكبير فى دهلى ، وسنعيد نشر الصورة الأولى فى موضعها وننشر صورة الجامع الكبير فى خاتمة المقالات .